

العدول عن أصل الترتيب وغاياته الأسلوبية عند الزمخشري

Deviation from the the Arrangement Origin and its Stylistic Goals for Al-Zamakhshari.

د. عبد الكريم العمراني*

أستاذ اللغة العربية

لدى وزارة التربية الوطنية

krimokarim@gmail.com

تاريخ النشر 2021.03.04

تاريخ القبول 2021.01.15

تاريخ الوصول 2021.01.02

ملخص:

لقد حظي مفهوم العدول عن الأصل باهتمام كبير لدى البلاغيين والنقاد، وحتى إن إجماعهم يكاد ينعقد على محوريته في العمل الإبداعي مطلقاً إلى الحد الذي يجعله فيضلاً ما بين الكلام الفني وغير الفني. والحديث عن مفهوم العدول لا يكون مشروعاً إلا إذا كانت هناك إشارة إلى نمط أصلي مفترض تقاس عليه كمية العدول ومداه، لأن العدول المقبول هو العدول الذي يتوافق مع النظام الذي وضعته العربية للغة، يتسق مع قوانينها من حيث المبنى والمعنى. وتصدر الإشارة إلى أنّ مصطلح العدول لا يعني الانفلات من نظام اللغة إلى حدّ الفوضى بحيث يصبح المعنى ملبساً وغامضاً فالأمر يبقى وفق المعايير التي تضمن للمعنى وضوحه. وللعُدول ضروب شتى يبقى أبرزها العدول عن أصل الترتيب بتقديم ما رتبته التأخير أو العكس، وأنّ لكل عنصر دلالة اعتماداً على موقعه في الكلام، وبحسب المقامات والأحوال، إلّا أنّ الغرض الأوّل من تقديم عنصرٍ ما هو كون ذكره أهمّ من ذكر باقي أجزاء الكلام، والعناية به أكثر من العناية بذكر غيره. وقد حاول البحث الوقوف عند بعض اللطائف البلاغية الداعية للعدول عن أصل الترتيب عند الزمخشري، والتي حاول أن يبرها، مبرزاً بذلك ما في التركيب القرآني من حس لغوي مرهف، وعلى ما في نظمه من طاقة على البيان باستخدام أبسط الأساليب.

الكلمات المفتاحية: العدول، الأصل، الترتيب، التقديم والتأخير، الزمخشري

Abstract:

The concept of deviation from the origin has received a lot of attention among rhetoricians and critics, and even their consensus on its pivotism in the creative work is almost completely confined to the extent that it connects between artistic and non-technical rhetoric. Talking about the concept of moderation is not legitimate unless there is an indication of a supposed original pattern against which to measure the amount and extent of change, because

*المؤلف المرسل

acceptable change is the moderation that is in line with the system established by Arabic for its language, and consistent with its laws in terms of structure and meaning. It should be noted that the term "adoul" does not mean deviating from the language system to the point of chaos, whereby the meaning becomes equivocal and ambiguous. It, however, remains according to the criteria that guarantee the meaning and its clarity.

There are various types of change, the most prominent of which remains the departure from the original arrangement by presenting what was arranged by the delay or vice versa, and that each element has its significance depending on its position in speech, and according to the statuses and conditions. However, the first purpose of presenting an element is that its mention is more important than mentioning the rest of the parts of speech, and caring for it more than taking care of others. The research tackles some rhetorical kindnesses calling for a departure from the origin of the arrangement in al-Zamakhshari, which he tried to justify, highlighting the delicate linguistic sense in the Qur'anic composition, and the energy in his systems for clarification using the simplest methods.

Keywords: Deviation, origin, arrangement, forward and delay, Zamakhshari

1. مقدمة:

ينطلق البحث في العدول من كونه معيار الفنية وميسم الإبداع في اللغة، وألاً إبداع في اللغة ما لم يعدل بما عن مستواها التواصلية، إذ إنّ أدبيّتها في انفلاتها من قوالها الجاهزة، وفنيّتها في خروجها عن أصلها الثابت المؤلف والمغامرة في أفق جديد متحول يأبى الثبات على الحال. وفنية اللغة الأدبية ليست في عدولها عن مستوى التواصل فحسب وإنما في عدولها عن ذاتها، لأن تفرد نصّ لا يتأتى إلاّ بتجاوز نصّ آخر والإفادة منه. وما كان التاريخ ليحفظ النصوص لو جاءت متشابهة، وما كانت العرب لتحتفي بالخطيب أو الشاعر لولا تفرد في القول. والعدول عن الأصل لا يكون إلا لطلب التميز أملاً في الاستحواذ على قبول الآخر ورضاه، فالذي يعدل عما عليه الناس يقدم في عدوله دعوة ضمنية إلى الآخر مؤداها أن الذي عندي يغير ما عند الناس.

فإذا كان العدول في مطلقه سمة العمل المتميز، وكانت اللغة ترجمان الفكر، فإن العدول في اللغة لا يكون إلا في النصوص المتميزة بلة النصّ القرآني. فالقرآن الكريم أجود النصوص سبكا وأعلاها بلاغة وأكثرها دقة ومعنى، لذلك جاءت هذه الدراسة لتمحص ظاهرة العدول عن أصل الترتيب في النصّ القرآني وتحليلها وتعليل أسبابها، مستعينة بكتاب "الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للوقوف عند بعض اللطائف البلاغية الداعية للعدول عن أصل الترتيب عند الزمخشري، والتي حاول أن يبررها، ميرزا بذلك ما في التركيب القرآني من حس لغوي مرهف، وعلى ما في نظمه من طاقة على البيان باستخدام أبسط الأساليب.

2. مفهوم العدول

1.2 . لغة:

يقودنا البحث في المادة اللغوية للجذر (ع د ل) إلى معنيين متقابلين:

-أحدهما: الاستواء والمساواة، فالعدل من الناس: المرصّي المستوي الطريفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ [البقرة: 123]، أي فديّة. وكلّ ذلك من المعادلة، وهي المساواة.

-والآخر: الاعوجاج والميل، يقال: عدل. وانعدل، أي انعرج¹. ويقال عدل عن الشيء يعدل عدلاً وعدولاً: حاد، وعن الطريق: جاز. وعدل الطريق: مال².

وهكذا فالملاحظ أنّ مصطلحي "العدل" و"العدول" عند اللغويين لهما الدلالة نفسها، إلا أنّ ما يعيننا منها هنا هي الدلالة الثانية التي تفيد معنى الاعوجاج والميل والخروج عن الأصل.

2.2 اصطلاحا

فإن للعدول جذوراً في التراث العربي القديم، فقد ذكر بلفظ "العدل" عند سيبويه في سياق الحديث عن علل المنع من الصرف، حيث يقول: "وزُحِلَّ معدولة في حالة، إذا أردت اسم الكوكب فلا ينصرف. وسألته عن جُمع وكُتِعَ فقال: هما معرفة بمنزلة كلُّهُم، وهما معدولتان عن جمع جمعاء، وجمع كتعاء"³.

وورد بلفظ "العدول" عند السيوطي في معرض حديثه عن مخالفة القياس، حيث قال: "وكذلك العدول عن صيغة إلى أخرى كقوله: [من البسيط] (جدلاًءٌ محكّمةٌ من نسج سلاّم)، أي: سُلَيْمَان"⁴. وهو عند ابن جني: ضرب من التصرف، وفيه إخراج للأصل عن بابهِ إلى الفرع"⁵.

وهكذا يبدو أن ما تحمله كلمة "العدول" في معناها اللغوي من الانحراف والانصراف والميل ليبدل دلالة واضحة على قرب صلتها بالمعنى الاصطلاحي في المجال الأدبي، ذلك أن في العدول ميلا من صياغة إلى أخرى ومن تركيب إلى آخر، حتى قيل إنه "خروج عن أصل أو مخالفة لقاعدة، ولكن هذا الخروج وتلك المخالفة اكتسبا في الاستعمال الأسلوبي قدرا من الاطراد رقى بهما إلى مرتبة الأصول التي يقاس عليها"⁶.

وقد حظي مفهوم العدول عن الأصل باهتمام كبير لدى البلاغيين والنقاد، ويكاد إجماعهم ينعقد على محورته في العمل الإبداعي مطلقا إلى الحد الذي يجعله فيصلا "ما بين الكلام الفني وغير الفني"⁷.

و هناك مصطلحات عدة في الدراسات الأسلوبية المعاصرة لها نفس الدلالة وخاصة مصطلح الانزياح. إلا أن الباحث ارتضى مصطلح العدول لأصالته في الدراسات العربية، ولدلالته على القصدية عند منشئ الكلام، أما مصطلح الانزياح فيوحي بتلقائية الحدث التي يدل عليها فعل "انزاح" الذي هو من أفعال المطاوعة.

والحديث عن مفهوم العدول "لا يكون مشروعا إلا إذا كانت هناك إشارة إلى نمط أصلي مفترض"⁸ تقاس عليه كمية العدول ومداه، لأن العدول المقبول هو العدول الذي يتوافق مع النظام الذي وضعته العربية للغتها، يتسق مع قوانينها من حيث المبنى والمعنى، وتجدر الإشارة إلى أنّ مصطلح العدول لا يعني الانفلات من نظام اللغة إلى حدّ الفوضى بحيث يصبح المعنى ملبسا وغامضا، فالأمر يبقى وفق المعايير التي تضمن للمعنى وضوحه، وهو ما أشار إليه سيبويه في حديثه عن الاستقامة من الكلام والإحالة بقوله: "فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن فقولك: أتيتك أمس وسأتيك

غدا، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره فتقول: أتيتك غدا وسأتيك أمس، وأما المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيد يأتيك، وأشبه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس⁹، فالحال عند سيبويه هو عدول عن الصواب، وأن درجة العدول فيه تصل إلى أقصاها بحيث يصبح الكلام فاسدا، وخاليا من المعنى.

وحصر الأسباب المؤدية إلى مخالفة الأصول النحوية "مما يهتم به علماء اللغة المحدثون، خاصة التحويليين منهم، فهم يرون أن للجملة بنية عميقة تمثل الأصل الذي تبنى عليه القواعد، وبنية سطحية تمثل الانحراف عن ذلك الأصل، ولا بد عند دراسة اللغة أن تحصر الأساليب المؤدية إلى تلك الانحرافات، وأن ينظر في تأثيرها على المستوى النحوي وغيره من المستويات"¹⁰.

وسيقصر هذا البحث على دراسة تغيير مواقع أجزاء الكلام داخل التركيب النحوي للجملة بما يفيد أصل المعنى وأصل الوضع، ثم يكون العدول عن هذا النمط بمثابة منبّهٍ فنيٍّ يعتمد إليه المبدع لخلق صورة فنيّة متميزة، وهكذا فإنّ العدول الذي سيتم الحديث عنه هنا سيكون خاصا بالبناء اللغوي والشكل الأسلوبي، لذلك ارتضيت هذا التعريف الذي يرى أنّ العدول هو مخالفة الكلام لأصله التركيبي لغاية جمالية ودلالية.

3. العدول عن أصل الترتيب

إنّ للغة العربية نظاما تركيبيا في تأليف الجملة، وهذا النظام التركيبي للغة يضع مواقع خاصة للمعاني النحوية التي تشغلها الكلمات في الجملة، إذ يخضع ترتيب الجملة لأغراض المتكلمين، فليس تأليف الجملة جمعا آليا للمفردات، إنما هو تشكيل تعبير متفاعل، يؤثر بعضه في بعض، يقول الجرجاني: "وأما نظم الكلم...تقتضي في نظمها آثار المعاني وتربتها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذاً نظمٌ يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء وأتفق"¹¹.

فقيمة الرتبة في النحو تبدو من خلال حاجة المتكلم والمستمع سيان إلى معرفة ذلك القانون الذي تسير عليه اللغة، وإلى إدراكه طريقة تعبيرها، ذاك أن المتكلم يُرتّب الكلام في ذهنه مراعيًا منزلة المعنى المراد إيصاله إلى المتلقي وأهميته بين أجزاء التركيب، فهو يفكر وهو يقول، ويقول وهو يفكر، فعندما يحرك شفثيه وينطق بعبارة فإنه يمارس عملية اختيار على صعيد المعنى وبحسب السياق الذي هو فيه، فهو لا يختار التركيب اختيارا عشوائيا، وإنما يعتمد إلى اختيار التركيب الذي يؤدي المعنى الذي يريده، ويلتزم السياق الذي يورده فيه.

1.3 تعريف الرتبة:

جاء في لسان العرب لابن منظور حول المفهوم اللغوي للرتبة :

رَتَبَ الشَّيْءُ يُرْتَبُ رُتُوبًا ، وَتَرْتَبَ : نَبَتَ فَلَمْ يَتَحَرَّكْ . يُقَالُ رَتَبَ رُتُوبَ الكَعْبِ أَي انْتَصَبَ انْتِصَابَهُ ، وَرَتَّبَهُ تَرْتِيبًا: أَثْبَتَهُ ، وَالرَّتْبَةُ : الْوَاحِدَةُ مِنْ رُتَبَاتِ الدَّرَجِ ، وَالرُّتْبَةُ وَالْمُرْتَبَةُ : الْمَنْزَلَةُ عِنْدَ الْمُلُوكِ وَنَحْوِهَا . الْمُرْتَبَةُ : الْمَنْزَلَةُ

الرفيعة. قال الأصمعي المرتبة المرقبة وهي أعلى الجبل. وقال الخليل: المراتب في الجبل والصَّحاري: هي الأعْلَامُ الَّتِي تُرْتَّبُ فِيهَا الْعُيُونُ وَالرُّبَاءُ¹².

واصطلاحاً هي: "علاقة بين جزأين مرتبين من أجزاء السياق، يدل كل موقع منهما من الآخر على معناه"⁽¹³⁾. ذلك أن للكلمة موقعا معلوما بالنسبة لصاحبها كأن تأتي سابقة لها أو لاحقة، فإن كان موقعها ثابتا لا يقبل التغيير تقدما أو تأخرا بالنسبة لتلك سميت الرتبة محفوظة، ولو اختلف هذا الموقع لاختل التركيب باختلاله، وإن كان الموقع عرضة للتغيير سميت غير محفوظة¹⁴.

ويتجلى الفرق بين الرتبة المحفوظة والرتبة غير المحفوظة في أن "الرتبة المحفوظة رتبة في نظام اللغة وفي الاستعمال في الوقت نفسه، أما غير المحفوظة فهي رتبة في النظام فقط"¹⁵. ذلك أن اللغة العربية قد حددت حالات معينة يجب فيها مراعات الترتيب بين عناصر الجمل حتى يحصل التواصل بين المتخاطبين، وتمثل هذه الحالات الأسس والقواعد التي لا تقبل التغيير، فإذا تم العدول عنها واختل الترتيب "وقع السامع أو القارئ في لبس منهي عنه في قواعد اللغة، ويكون قد خرج عن النظام اللغوي الذي وضعته اللغة لنفسها"¹⁶، وتسمى الرتبة في تلك الحالات رتبة محفوظة لأنها لو اختلف التركيب باختلالها.

والرتبة غير المحفوظة كما سبقت الإشارة رتبة في النظام فقط، ذلك أن اللغة قد سمحت في بعض الحالات بالاختيار في ترتيب العناصر داخل الجملة، ففسحت المجال للمتكلم أو الكاتب أن يختار بين التزام الأصل بوضع كل كلمة في موضعها الأصلي الذي قضت به قواعد اللغة، وبين عكس الرتبة، بتقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم، ويبقى التواصل حاصلًا في الاختيارين معا لأنه لم يتم تكسير نظام اللغة والخروج عن قواعدها، إلا أن الاختيارين ليسا على القدر نفسه فيما يخص جمالية الأسلوب، فالرتبة غير المحفوظة "في الأسلوب مؤشر أسلوبى ووسيلة إبداع وتقليب عبارة واستجلاب معنى أدبي"¹⁷، فمخالفة الأصل في الرتبة غير المحفوظة يعد "من قبيل الأسلوب لا من قبيل الرخصة"¹⁸. وهو ما جعل البلاغيين يُؤلِّونَ عنايتهم لهذه الظاهرة لما لهذا الانحراف عن الأصل في تأليف الكلام من دقائق بلاغية ومؤثرات أدائية، لا تبرز إلا تحت وطأة المواقف الانفعالية والوجدانية.

2.3 دلالة العدول عند الزمخشري

وقد أشاد الجرجاني بألية العدول عن أصل الترتيب لما تمنح للمتكلم من إمكانية تبديل مواقع الكلمات في الجملة وفقا لمقتضيات المقام والسياق، حيث قال: "ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر، فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكانه إلى مكان"¹⁹، فهو يؤكد أنّ لكل عنصر لغوي أثره وفعالته في النص، وأنّ دلالاته تعتمد اعتماداً أساسياً على موقع هذا العنصر فيه، وبحسب المقامات والأحوال، إلا أنّ الغرض الأول من تقديم عنصرٍ ما هو كون ذكره أهمّ من ذكر باقي أجزاء الكلام، والعناية به أكثر من العناية بذكر غيره، وهذا ما عبّر عنه سيبويه بقوله: "يقدمون الذي بيانه أهمّ لهم وهم بيانه أعى، وإن كانا جميعاً يُهمّانهم ويعنيانهم"²⁰، وجعله الجرجاني قاعدةً للتقديم بقوله: "... لم نجدهم اعتمدوا

فيه شيئاً يجري مجرى الأصل غير العناية والاهتمام²¹، إلا أنه أكد أنّ الاقتصار على العناية والاهتمام لا يكفي لبيان سبب تقديم لفظٍ ما، بل يجب أن يُفسَّر وجه العناية فيه وسبب أهميته التي جعلته يتقدّم في حين تأخّر غيره . وما دام القول بالعناية وحدها لا يكفي فقد ذكر العلماء من الأغراض ما يُعدُّ وجوهاً لهذه العناية. ففيها تفسيرٌ لها وتعليل، ذلك أنّ لكلّ سياقٍ خواصّه، ولكلّ تقديمٍ أسرارهِ. وقد تبنّى الزمخشري دون غيره من المفسرين وجهة نظر الجرجاني الإعجازية، "وحاول أن يقف عملياً على ما أسسه الجرجاني نظرياً، فغاص على المعاني الكامنة وراء اختلاف ترتيب العناصر ساعياً إلى اجتناب الملاحظات المبتذلة، مشيراً إلى إعجاز القرآن في بُعد دلالة الترتيب وعمقها"²². ومجتهداً في تبرير صروف النظم القرآني تبريراً تشريعياً، وإعجازياً دالاً على أنه نظم واع مقصود لا توكل دقائقه إلى الصدفة والاعتباط.

ويمكن الوقوف على بعض اللطائف البلاغية الداعية للعدول عن أصل الترتيب عند الزمخشري، والتي حاول أن يبررها، مبرزاً بذلك ما في التركيب القرآني من حس لغوي مرهف، وعلى ما في نظمه من طاقة على البيان باستخدام أبسط الأساليب. وممّا ذكره من أغراض:

أ- العناية والاهتمام:

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفِكَاءَ آلِهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصفوات:86] وتقدير الكلام: أتريدون آلهة من دون الله إفاكاً، فقدم المفعول لأجله على الفعل والمفعول به، وإنما كان تقديمه للعناية والاهتمام حيث قال الزمخشري: "وإنما قدّم المفعول على الفعل للعناية، وقدّم المفعول له على المفعول به، لأنه كان الأهمّ عنده أن يكافحهم بأنهم على إفاك وباطل في شركه"²³. وكما هو معلوم فالآية استنفهام إنكاري، ومادام معناها الإنكار فإن ترتيب الألفاظ ينبغي أن يكون بحسب الأولوية في استحقاق الإنكار، "ولو أنّ سياق الكلام كان على صورة أخرى مثل "أتريدون آلهة دون الله إفاكاً" لانظفاً كل ما في الكلام من حرارة الإنكار ولبدا الكلام وكأنه سؤال لهم عما يفضلونه من أنواع الشرك"²⁴.

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مریم:46] علّل الزمخشري تقديم الخبر على المبتدأ "لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد. وفي هذا سلوان وثلج لصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقي من مثل ذلك من كفار قومه"²⁵.

وقد فسر الزمخشري تقديم المفعول الثاني على الأول لفعل رأى بالعناية في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان:43] حيث قال: "فإن قلت لم أحرهواه والأصل قولك: اتخذ الهوى إلهاً؟ قلت: ما هو إلا تقديم المفعول الثاني على الأوّل للعناية، كما تقول: علمتُ منطلقاً زيداً، لفضل عنايتك بالمنطلق"²⁶. وفي الكلام لطيفة وهي إفادة الحصر، ذلك أن الكلام قبل دخول "أرأيت" مبتدأ وخبر: المبتدأ هو، والخبر إلهه، وكما هو

معلوم أن خبر المحصور يجب تقديمه، فصار الكلام كأنه قال: رأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه، وهذا أبلغ في ذمه وتوبيخه ، والله أعلم.

ب- التعظيم والتفخيم:

وقد أشار الزمخشري إلى التعظيم الذي يحدثه العدول عن أصل الترتيب في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ [الأنعام:100] بقوله: "إن جعلت "لِلَّهِ شُرَكَاءَ" مفعولي جعلوا، نصبت الجن بدلا من شركاء، وإن جعلت "لِلَّهِ" لغوا، كان "شُرَكَاءَ الْجِنَّ" مفعولين قدّم ثانيهما على الأول. فإن قلت: فما فائدة التقديم؟ قلت: فائدته استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ملكا أو جنيا أو إنسياً أو غير ذلك. ولذلك قدّم اسم الله على الشركاء."²⁷.

ومثله قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ [الأنعام:2] ومعناه: "وأي أجل مسمى عنده تعظيما لشأن الساعة ، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم"²⁸، فقد تقدم المبتدأ وهو نكرة، ومما سوغ الابتداء به وصفه بـ"مسمى" "لأن النكرة إذا وصفت قربت من المعرفة"²⁹، يقول الزمخشري: "إن قلت : المبتدأ النكرة إذا كان خبره ظرفا وجب تأخيرها فلم جاز تقديمه؟ قلت : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة كقوله ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُّشْرِكٍ﴾ [البقرة:221]"³⁰.

ج- التعجب والإنكار:

وفي قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مریم:46] يرى الزمخشري أن حمل الآية على وجه نحوي مخالف للمشهور هو أحصب للمعنى، فيقول: "لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد"³¹. إذ يجوز أن يكون " راعب" خبرا مقدما، و " أنت " مبتدأ مؤخرا ، وأن يكون " أراعب " مبتدأ ، و"أنت " فاعل سد مسد الخبر، ويترجح هذا الإعراب الأخير عند النحاة من وجهين : الأول أنه لا يكون فيه تقديم ولا تأخير ، والأصل في الخبر التأخير كما هو معلوم، الوجه الثاني هو ألا يكون فصل بين العامل الذي هو " أراعب" ، وبين معموله الذي هو "عن آلهتي" بما ليس بمعمول للعامل؛ لأن الخبر ليس هو عاملا في المبتدأ، بخلاف كون "أنت" فاعلا، فإنه معمول "أراعب" فلم يفصل بين " أراعب " وبين "عن آلهتي" بأجنبي ، وإنما فصل بينهما بمعمول المبتدأ الذي هو فاعله الساد مسد خبره.

وقد قيل في توجيه ما ذهب إليه الزمخشري "أن المبتدأ ليس أجنبيا من كل وجه لا سيما والمفصول ظرف متوسع فيه والمقدم في نية التأخير، وهذا الأسلوب قريب من ترجيح الاستحسان على القياس لقوة أثره، وأن زيادة الإنكار إنما تنشأ من تقديم الخبر كأنه قيل: أراعب أنت عنها، لا طالب لها راعب فيها، منبها له على الخطأ في ذلك، ولو قيل: أترغب لم يكن من هذا الباب في شيء، فتدبر"³².

ومن الإنكار ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهَا﴾ [هود:28] "يعني أنكروكم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها، وأنتم تكروها ولا تحتارونها ، ولا إكراه في الدين" ³³.

ولأن الغرض هو إنكار الفعل لذلك قدّم على الاسم، أما إذا كان الغرض هو إنكار الاسم وجب تقديمه. وإنما كان الإنكار في مثل هذا "لِيَتَنَبَّه السامع حتى يَرْجِعَ إلى نفسه فيحجّل ويرتدّع ويعيي بالجواب" ³⁴.

ومن تقديم الاسم قوله تعالى: ﴿أَلَلَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس:59] وفي هذا إنكار تكذبي في الفاعل، "ومعلومٌ أنّ المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذنٌ فيما قالوه، ومثال ذلك قولك للرجل يدعي أن قولاً كان ممن تعلم أنه لا يقوله: "أهو قال ذلك بالحقيقة أم أنت تغلط؟"، تصع الكلام وضعة إذا كنت علمت أن ذلك القول قد كان من قائل، لينصرف الإنكار إلى الفاعل، فيكون أشدّ لنفي ذلك وإبطاله" ³⁵.

﴿أَغْيَرَ اللَّهُ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا﴾ [الأعراف:140] والمعنى: أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره، من الاختصاص بالنعمة التي لم يعطها أحداً غيركم، لتختصوه بالعبادة ولا تشركوا به غيره. "ومعنى الهمزة: الإنكار والتعجب من طلبهم. مع كونهم مغمورين في نعمة الله. عبادة غير الله." ³⁶. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلِ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام:144] "الهمزة في "الذكْرَيْنِ" للإنكار، والمعنى إنكار أن يحرم الله تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئاً" ³⁷.

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الزخرف:40] ففيه إنكار على الرسول صلى الله عليه وسلم الذي كان يجد ويجتهد ويكدر روحه في دعاء قومه، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي فأنكر عليه بقوله ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ﴾ "إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر" ³⁸.

د- الاختصاص:

ومن مواضع الاختصاص عكس الرتبة وتشمل تقديم الخبر على المبتدأ، كقوله تعالى: ﴿وَافْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء:97] ، فهذا التقديم يفيد اختصاص الأبصار بالشخص دون غيرها، كأنه قال: فإذا هم شاخصون .

ومثله تقديم المفعول به على فعله كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5]، والمعنى: لا نعبد أحداً غيرك ولا نستعين بسواك، فنخصك بالعبادة ونخصك بالاستعانة. وفي قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر:14]، إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، "ولدلالته على ذلك قدّم المعبود على فعل العبادة" ³⁹.

ويتقدم الجار والمجرور كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن:1]، فقد قدم الظرفان ليدل بتقدمهما على معنى اختصاص الملك والحمد بالله عز وجل ، وذلك لأنّ الملك على الحقيقة له ، لأنه مبدئ كل

شيء ومبدعه ، والقائم به ، والمهيمن عليه ، وكذلك الحمد ، لأن أصول النعم وفروعها منه.⁴⁰ . وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: 48] ، فتقدم الجار والمجرور يفيد تأكيد الاختصاص ، إذ إن علم الساعة من اختصاص الله وحده لا يعلمه أحد غيره . ويرى الزمخشري في قوله تعالى: ﴿هُوَ عَلِيُّ هَيِّنٌ﴾ [مریم: 9] ، أن معناه "اختصاص الله بالقدرة على إيلاد الهم والعاقر"⁴¹ ، فتقدم الجار والمجرور هنا دل على أن الأمر هين على الله وحده ، مختص به ، وأن غيره عاجز عن ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: 44] ، يقول الزمخشري : "تقدم الظرف يدل على الاختصاص ، يعني: لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن"⁴² .

وفي الفرق بين قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: 11] وقوله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: 14] قال الزمخشري: "الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص. والثاني: إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول، فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله"⁴³ .

وفي الفرق بين العدول عن أصل الترتيب وبين النظم على الأصل يرى الزمخشري في قوله تعالى: ﴿ظَنُّوا أَنَّهُمْ مانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: 2] ، أن "في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم، وفي تصيير ضميرهم اسماً لأنّ وإسناد الجملة إليه : دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معها بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم، وليس ذلك في قولك : وظنوا أنّ حصونهم تمنعهم."⁴⁴ .

4. خاتمة:

وفي الختام يمكن القول إن العدول في الرتبة من أهم مقومات علمي النحو والبلاغة، و لا يكون هذا العدول اعتباطاً بلّ لعلّةٍ وغرض مقصود تُبيح للمتكلم التوسع لإبراز الملكة التي يمتلكها في سياقات مختلفة، وفيها من الشجاعة ما يمكنه من مخالفة مظهر من مظاهر وقرائن المعنى دون خشية اللبس، واعتماداً على قرائن أخرى نفى بالغرض وتجعل المعنى أرقى من حيث دلالاته وبيانه.

و إن منهج الزمخشري امتاز بتبعه للأساليب المطّردة، وتساؤله عن القيم الفنية والجمالية للعدول عن أصل الترتيب بالتقدم والتأخير، مبينا أنّ العدول مقصودٌ ودال وليس شكلاً من أشكال الزينة أو العبث، فالتقدم والتأخير نوعٌ من التصرف في التركيب والعدول عن أصل ترتيب عناصره لغاية بيانية معنوية، وهذا التصرف لا يكون اعتباطاً لغير علّة وإلا كان جوراً على التركيب ومعناه، وإفساداً للكلام بأسره. كما قارن بين التراكيب التي تقاربت مواقعها حيناً، وتباعدت أحياناً أخرى، وكان الفرق فيما بينها قائماً على ما فيها من عدول عن أصل

الترتيب، وقد حاول أن يبرر ذلك مبرزاً لما في التركيب القرآني من حس لغوي مرهف، وعلى ما في نظمه من طاقة على البيان.

5- الهوامش:

- 1 ينظر: ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، بيروت - لبنان، 1979، 4/246-247
- 2 ينظر: ابن منظور، جمال الدين محمد: لسان العرب، دار صادر، الطبعة: الثالثة، بيروت - لبنان، 1414هـ/11/434 (عدل)
- 3 سيويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة: الثالثة، القاهرة - مصر، 1988، 224/3
- 4 السيوطي، جلال الدين، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1998، 151/1
- 5 ابن جني، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هندواوي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 2008، 103/1
- 6 حسان، تمام، البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة - مصر، 1993، ص: 347
- 7 ويس، محمد، الانزياح في التراث النقدي البلاغي، اتحاد كتاب العرب، (د.ط)، دمشق، 2002، ص: 5.
- 8 بوهدي محمد و الرحوني عبد الرحيم، دراسات أسلوبية في التراث، مطبعة آنفو-برانت، (د.ط)، فاس-المغرب، 2005، ص: 45.
- 9 الكتاب 25/1.
- 10 الراجحي، عبده، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة، (د.ط)، بيروت - لبنان، 1979، ص: 154.
- 11 الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة: الخامسة، القاهرة - مصر، 2004م، ص: 49.
- 12 ينظر لسان العرب لابن منظور 1/409-410.
- 13 حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، (د.ط)، الدار البيضاء-المغرب، 1994م، ص: 209.
- 14 ينظر حسان، تمام، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، القاهرة - مصر، 1427هـ - 2006م، 358_357/1.
- 15 البيان في روائع القرآن، ص: 91.
- 16 حسين رفعت حسين، الموقعية في النحو العربي - دراسة سياقية، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، القاهرة، 1426هـ - 2005م، ص: 93.
- 17 البيان في روائع القرآن، ص: 91.
- 18 حسان، تمام، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة: الثانية، القاهرة، 1425هـ - 2005م، ص: 83.
- 19 دلائل الإعجاز، ص: 106.
- 20 الكتاب، 34/1.
- 21 دلائل الإعجاز، ص: 107.
- 22 الخطلاوي، الهادي، قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج - التأويل - التفسير، دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، صفاقس - تونس، ديسمبر 1998، ص: 528.
- 23 الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، بيروت-لبنان، 1407هـ، 4/49.
- 24 البيان في روائع القرآن، ص: 95.
- 25 الكشاف 20/3.
- 26 نفسه 282/3.
- 27 الكشاف 52/2.
- 28 نفسه

- 29 الأزهرى، خالد، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 2000، 210/1.
- 30 الكشاف 5/2.
- 31 الكشاف 20/3.
- 32 الخفاجي شهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار صادر، (د.ط) بيروت-لبنان 162/6.
- 33 الكشاف 390/2.
- 34 دلائل الإعجاز، ص: 119.
- 35 نفسه ص: 115.
- 36 الكشاف 150/2.
- 37 الكشاف 74/2.
- 38 الكشاف 253/4.
- 39 الكشاف 119/4.
- 40 الكشاف 545/4.
- 41 الكشاف 476/3.
- 42 نفسه 393/4.
- 43 الكشاف 119/4.
- 44 الكشاف 499/4.

6. قائمة المراجع:

❖ القرآن الكريم

- ❖ ابن جنى، الخصائص، تحقيق عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 2008.
- ❖ ابن فارس، أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د.ط)، بيروت - لبنان، 1979.
- ❖ ابن منظور، جمال الدين محمد: لسان العرب، دار صادر، الطبعة: الثالثة، بيروت - لبنان، 1414 هـ .
- ❖ الأزهرى، خالد، شرح التصريح على التوضيح، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 2000.
- ❖ بوحمدى محمد و الرحومى عبد الرحيم، دراسات أسلوبية في التراث، مطبعة أنفو-برانت، (د.ط)، فاس-المغرب، 2005.
- ❖ الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، الطبعة: الخامسة، القاهرة- مصر، 2004م.
- ❖ الجطلابى، الهادى، قضايا اللغة في كتب التفسير: المنهج - التأويل - التفسير، دار محمد علي الحامى للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، صفاقس - تونس، ديسمبر 1998.
- ❖ حسان، تمام، البيان في روائع القرآن دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني، عالم الكتب، الطبعة الأولى، القاهرة - مصر، 1993.
- ❖ حسان، تمام، الخلاصة النحوية، عالم الكتب، الطبعة: الثانية، القاهرة، 1425 هـ - 2005م.

- ❖ حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، (د.ط)، الدار البيضاء- المغرب، 1994م.
- ❖ حسين رفعت حسين، الموقعية في النحو العربي- دراسة سياقية، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، القاهرة، 1426هـ- 2005م.
- ❖ الخفاجي، شهاب، حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار صادر، (د.ط) بيروت-لبنان.
- ❖ الراجحي، عبده، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة، (د.ط)، بيروت - لبنان، 1979.
- ❖ الزمخشري، محمود بن عمرو، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، الطبعة: الثالثة، بيروت-لبنان، 1407هـ.
- ❖ سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، الطبعة: الثالثة، القاهرة - مصر، 1988.
- ❖ السيوطي، جلال الدين، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، بيروت - لبنان، 1998.
- ❖ ويس، محمد، الانزياح في التراث النقدي البلاغي، اتحاد كتاب العرب، (د.ط)، دمشق، 2002.
- ❖ ينظر حسان، تمام، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، القاهرة- مصر، 1427هـ - 2006م.